



الفضية الفلسطينية.. في الشعر الإسلامي المعاصر

حصلت الباحثة الأكاديمية حليلة بنت سويد عبدالله الحمد على درجة الماجستير بتقدير ممتاز من كلية الآداب للبنات بالدمام التابعة للرئاسة العامة لتعليم البنات بالمملكة العربية السعودية وذلك عن رسالتها: القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر ما بين ١٢٨٧هـ (١٩٦٧م) و ١٤١٠هـ (١٩٩٠م) أشرف على الرسالة د. عمر محمد الأسعد وشارك في مناقشتها كل من أ. د. أحمد شمس الدين الحجاجي ود. ظافر عبدالله الشهري. تكونت الرسالة من مقدمة وخمسة فصول وخاتمة وفهرس الشعراء المترجم لهم وثبت المراجع. وقد بلغ عدد الشعراء الذين درست الباحثة القضية الفلسطينية في أشعارهم خمسة وثلاثين شاعرا، معظمهم من شعراء رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

جاء الفصل الأول بعنوان لمحة تاريخية وانقسم إلى بحثين، البحث الأول الأرض المباركة في التاريخ الإسلامي، وتحدثت فيه الباحثة عن موقف الرسول ﷺ من اليهود والإسلام والأرض المباركة وفتح فلسطين والمعارك الإسلامية، وفلسطين في العهد المملوكي. أما البحث الثاني الأرض المباركة في التاريخ الحديث فتحدثت فيه عن أحداث ما قبل عام ١٩٦٧م ونكبة عام ١٩٤٨م وجذورها التاريخية، وأحداث ما بعد عام ١٩٦٧م وأبرزها الانتفاضة.

أما الفصل الثاني فقد جاء بعنوان تفاعل الشعر الإسلامي مع الواقع الحي للمأساة وتحدثت فيه عن نكبة عام ١٩٦٧م أسبابها وآثارها، وعن معاناة الشعب الفلسطيني، ومظاهر الإرهاب، ومأساة النزوح، ومشاعر الحنين والغربة، وحريق المسجد الأقصى عام ١٩٦٩م، وردود الفعل العربية، واجتياح لبنان، ومذبحة صبرا وشاتيلا.

وتناولت في الفصل الثالث الشعر الإسلامي ومحاور الإبداع الشعري. فتحدثت عن مكانة فلسطين، وقداسة المسجد الأقصى، وكشف طباع اليهود وعدائهم للإسلام واستنهاض همم أبناء الإسلام لتحرير الأرض المقدسة. في حين كان الفصل الرابع عن الشعر الإسلامي واستلهم قيم الانتفاضة وتحدثت فيه عن الابتهاج بالانتفاضة والأمل بالنصر والعودة، ورتاء الشهداء وتهوين الموت في سبيل الله والحل الإسلامي هو الطريق لإنقاذ فلسطين.

وفي آخر فصول الرسالة تناولت الباحثة التجربة الإبداعية في ميزان النقد الأدبي فتحدثت عن التجربة الوجدانية والتعبير عنها والوحدة العضوية والخيال الإبداعي وأخيرا الموسيقى الشعرية.

والمواظ، والوصايا، هي النموذج الأروع لهذا الأدب. توجد في تاريخ الأدب نماذج الكلام الإنساني التي تمثل هذا الأدب، وقد ظلت هذه النماذج محفوظة في بطون الكتب، في موضوعات التاريخ والسير والتراجم، وعرض القرآن الكريم نماذج كلام الأنبياء والصالحين، وما جرى بينهم وبين أممهم من حوار، ومن نصائح، ومواعظ في مختلف العصور الغابرة.

كان نوح - عليه السلام - نبيا من الأنبياء الأقدمين، وقد دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ووعظهم، فذكر القرآن الكريم دعوته إلى قومه بأسلوب مؤثر، يرقق القلب، ويثير الوجدان، ثم جاء الأنبياء الآخرون، ودعوا أممهم وتحمل هذه الدعوات والحوارات، ثروة غنية من الحكمة والموعظة الحسنة أما الحكمة فهي مراعاة المناسبة والمخاطب، وأحاسيسه، أما الموعظة الحسنة فهي أسلوب حسن للدعوة، والمنهج الأخاذ للكلام، وإن الكلام إذا خاطب القلب أيضا، ولم يخاطب العقل وحده، يكون مؤثرا وخالبا.

إن السر في خلود الأدب وتأثيره هو مخاطبته للقلب والشعور، وأن يصل إلى القلب، ولا تؤدي فيه المعنى تأدية جافة بالألفاظ المجردة، بل يقترب به الشعور والوجدان، والأديب الموفق هو الذي يدرك الأحاسيس والمشاعر، ثم يتخير ألفاظا لائقة لتأدية هذه الأحاسيس والمشاعر والتعبير عنها، فإذا كان ذلك الشعور للأديب شعورا داخليا فإن الأديب يكون أديبا موهوبا، ومطبوعا، وإننا نجد نوعين من الأدباء: أديب يحكي عن نفسه وشعوره، وأديب يمثل مجتمعه والبيئة التي يعيش فيها، لكنه بمواهبه وقدراته المودعة في نفسه يحول ذلك الأدب أدبا رائعا.

وتوجد في مختلف طبقات الإنسان مماثلة ومشابهة في الأحاسيس والعواطف البشرية، مهما اختلفت هذه الطبقات، فيستطيع المتكلم عندما ينصح رجال عهده أن يمثل أحاسيس المستمعين وعواطفهم.

إننا نجد روائع من الموعظة والنصيحة راعى فيها المتكلم نفسية المخاطب، وأحاسيسه وتخبر فيها الكلمات المؤثرة، والأسلوب الجميل.

وقد لفتت رابطة الأدب الإسلامي عنايتها إلى مثل هذه الروائع الفنية الهادفة، وأرادت إخراجها، من النخائر المطمورة في كتب التاريخ والسير، وقد قطعت من عمرها ثلاث عشرة سنة حققت فيها الكثير، وأبرزت مواضع البحث والتحقيق الجديدة، وقد عقدت اثنتي عشرة ندوة في الهند، في مختلف المدن، اشترك فيها أدباء وعلماء الجامعات العصرية والمدارس والمراكز الإسلامية والعربية.

وهذه الندوة هي الثالثة عشرة من بين الندوات السنوية التي يعقدها مكتب شبه القارة الهندية في مختلف المدن الكبيرة ذات الطابع الإسلامي في شبه القارة.

وإن المكتب بالإضافة إلى هذه الندوات يصدر مجلة علمية ذات اختصاص بالأدب الإسلامي مرة في كل ثلاثة أشهر باللغة الأردية وهي دخلت الآن في العام الثالث من عمرها وذلك تزامنا مع المجلة العربية ذات الاختصاص نفسه التي يصدرها مكتب البلاد العربية.

وكان مكتب شبه القارة الهندية قد أصدر نشرة صحفية بالعربية شهرية قبل مجلته الأردية لمدة ثلاث سنوات

ويقوم المكتب بنشاطات أخرى لدعم الأدب الإسلامي نرجو من الله تعالى أن يزيدها نفعا، فإنه ولي التوفيق والقبول.



الصوت البرق الكاشف

جذبتها نحوي. لقد كان الماء لحظتها
قويا عاتيا.. كان وحشا كاسرا، كان
ممكنا أن نغرق معا، ويبقى الأولاد بلا
عائل وبغير أم، لقد جذبتها فلم
تنجذب.. سحبتها.. لكن التيار جرفها..
الصوت الآخر: يزار زئيرا يضرب
رأسه ضربا: مددت يدك لكن لم تلق
جسمك عليها.. مددت يدك لكن بغير قوة،
هل كنت تريد إخراجها؟

الصوت الأول: ألم أندفع في الماء؟ ألم أمد
يدي إليها..

الصوت الرعد الحاد: هل نويت إنقاذها.. هل أحببت..
الصوت الأول: ألم أقدم نحو الماء الوحش الكاسر..
الصوت الرعد الصوت الإبرة: هل عذمت.. هل نويت.. هل أردت؟
الصوت الأول: أردت بدليل أنني ألقى جسمي في الماء؟
الصوت الوحش: وعندما وصلت إليها.. هل ألقى نفسك عليها؟
الصوت الأول: كان الماء قويا.
الصوت الإبرة: كان الماء دائما قويا.. كان عاتيا جبارا، وكنت قويا
مصارعا وأنت تخرج غيرها.

الصوت الأول: عمرها انتهى.. لكل أجل كتاب، لم أقتلها.. كنت
دائما عطوفا بها، كنت أشتري لها من سوق المدينة الحلوى التي
كانت تحبها.. أنا لم أقصر يوما معها، واليوم سحبها التيار من يدي
بقوة وغلظة.

الصوت السيف السوط: أنت لم تقتلها، أنت لم تفعل بها شيئا،
لكنك لم تلق بنفسك.. بجسمك عليها.. كانت رغبتك في إخراجها أقل
من رغبة الوحش الماء في التهامها.. وتركته ينتصر عليك، وأسرت
بالفرجة عليه.. نعم.. نعم.. كنت تحضر لها الحلوى التي تحبها.. لكن
هل كنت تحبها هي؟

الصوت الأول: لم أكن أبغضها
الصوت البرق الكاشف: كنت تريد أن تتزوج أخرى، وكانت تغار
عليك بقوة.. كلما شعرت أزدت وأرعدت وهددت بأنها ستسحب
منك التوكيل، وستجعل غيرك يتصرف في أرضها.

الصوت الأول: دخلت الماء المنهمر من أجلها
الصوت البرق الكاشف: لقد هتفت باسمك، فأدركتك شهيا مبتك..
فلما وصلت إليها..

الصوت الأول: مددت إليها يدي كلتيهما.
الصوت البرق الكاشف: في العام الماضي مرضت.
الصوت الأول: أحضرت الطبيب من المدينة بسيارة على حسابي.
الصوت البرق الكاشف: كانت تتألم.. وكان صوت خافت عاجز
يصدر عنها.. وكنت تتمنى.
الصوت الأول: ماذا؟
الصوت البرق الكاشف: أن تنطفئ شمعته هذا الصوت.

عينها شاخصتان نحوي.. حتى
أولادها لم تمنحهم نظرتها تلك
اللحظة.. يداها ممدوتان إلي..
والصيحة تنهالك.. تضعف.. لا تخرج
مع أن فمها مفتوح على آخره، مددت
لها يدي.. مددت يدي كلتيهما، وجذبتها
بقوة لتخرج من طوفان الماء.. لكن لم
تخرج! انفلتت يدها من يدي، وتركت
نفسها للطوفان.

كانت في نظرتها الأخيرة كلمات، كانت نظرتها
تلك أقوى من كل الكلمات، أعنف من عشرات الكلمات..

أحد، أشد. خمسة شهور مضت ولم تزل عينها تنتظران إلي..
علا صوت الصحف والمذياع أياما بأخبار سيل قرية أولاد علي..
انهار الجبل على القرية الوادعة المستسلمة لحضنه دائما في هدوء..
انهار الجبل بقوة الماء الزاحف فجأة، وفي طرفه عين غرقت البيوت
والأنعام والدواب وشيوخ ونساء وأطفال.. هلكت زروع وضروع..
ثم سكنت الصحف وانطفأت أصوات المذياع، وراح الجميع يذكرون
أشياء أخرى.. عشرات الأشياء غير سيل أولاد علي!

لكن رأسي لم يسكت، طرقات خشبية تهبط عليه ثم تنحدر إلى
نفسي أو قلبي.. حتى أولادي الخمسة الذين انتزعتهم من بين أقدام
الوحش المتخذ شكل الماء.. أخرجتهم بعيدا وفوق مرتفع قبل أن أتجه
إلى سعدي.. حتى أولادي الخمسة سكتوا ولم يعودوا يسألون عن
أسهم باكين، والصغيرة هدى - ذات ثلاث السنوات - قنعت بحب
خالتها بكريه التي لم تفرق فقد أخرجها زوجها بين ذراعيها.

لا تفارقني لحظة صورة حسنين وهو يندفع كالثور الهائج، ويلقى
بجسمه كله على بكريه ثم يرفعها إلى أعلى ويسرع بها خارجا من
بين أنياب الوحش وزمجرته.. إلى مرتفع.. إلى مرتفع.. لم يكن حسنين في أي
وقت من الأوقات لا في حرق أو حصاد أكثر قوة مني، أنا أطول منه
وأضخم، ومعروف بقوتي.. وهي.. سعدي تعرف ذلك.

لقد تركت يدي ورحلت، لم تر حسنين وهو يخرج بكريه من الماء..
رحلت قبل هذا بلحظات، لكنني أنا الذي رأيت نظرتها، وفهمت ما
تلفظان به، لم ترني وأنا أخرج بين ذراعي محمود أبو علي ثم سعد
السلطان ثم فؤاد أبو ربيع وأخيرا الحاجة بهية.. لقد أخرجتهم بعد
أن رحلت بعيدا.. لم ترني.. لكنها لا تزال تنظر إلي.

خمسة شهور مضت ولم تزل عينها مصوبتين نحوي. نحن
الأحياء أقيمت لنا خيام حتى يتم بناء بيوت ومن الخيام يتدفق الألم
والحزن طوال الوقت، لكن ما أكثر ما أسمع كلمات الحمد وأرى
فرحة النجاة.. الوجه الواحد يتلون في اليوم الواحد ألوانا مختلفة،
أما أنا.. فصامت مطرق أستمع فحسب إلى طرقات رأسي.

ينطلق من رأسي نحوي صوتان: صوت ضعيف وصوت يجار،
يزار. ويتعاقبان، لكن الصوت الآخر ينتصر دائما. كم كنت أود
هزيمته. الصوت الأول: لقد اندفعت إلى الماء، مددت يدي إليها،